« لتكن غايتنا في الحياة ـ بلادنا
« بلادنا وحدها ..
« وبلادنا كلها ..
« ولا شيء الا بلادنا »

هلادانيل

فى الفصل الاول من الكتاب رأينا كيف دخل الانجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الاتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا .

وقلنا ـ ان الاستعمار التركى قد اختفى حكامه ـ وبقيت تقاليده وشعائره وأحكامه .

ولكى نعصر مصر .. لابد من أن ننفى عنها هذه البقايا ـ ونطهر حياتها من تلك الشعائر والاعراش وذكرنا ان الطريق لهذا ـ هو الحرية الغامرة ، وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الكرامة والكبرياء فيها ـ وفى هذا الفصل نتدارس الوسائل الفلاحة التى نعصر بها مصر من الاستعمار البريطانى .

وخليق بنا أن ندرك بادى الامر ، أننا حتى اليوم لم نحدد وعينا لهذا الاستعمار ، ولم نحدد الوسائل المجدية فى مكافحته وطرده .. ولعل سبب ذلك أننا لم نؤت بصرا كاملا بأخطاره وأوزاره ومداوله .

فالكثرة الغالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضة فى القنال . ثم تتميز من الغيظ . وتظن أن هذا الاحتلال المسلح هو وحده ـ الاستعمار البريطانى

علينا أن نتعمق فى فهم هذا الاستعمار ونفوذه .

وعلينا قبل الخطوة الاولى أن نعلم أن هذه الجيوش المعتدية التى « برطنت » منطقة فايد ، وجعلتها مدينة انجليزية كبرى

هذه الجيوش التى تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكا تنوء بحمله الارقام .

هذه الجيوش التى تطأ بنعالها كرامة الشعب وطموحه ـ ليست الاحتلال البريطانى ، ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتلال .

ومن الممكن جدا أن تجلو القوات البريطانية عن ديارنا ..

ويظل جاثما ينشر وباءه وبلاءه . وانه لأمر مؤسف أن تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا ..

الا تذكرون الايام الغبية التي حشدت الدولة فيها كل مظاهر الحفاوة والفرح بعيد الجلاء . جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهللنا وكبرنا ، ونحن نعلم أنها استعمر على بعد خطوات . . ؟ !

لقد كانت هذه الظاهرة ، ولاتزال آية على اننا نحس حقوقنا احساس العبيد لا احساس الاحرار . ولقد كان مثل الانجليز معنا بهذا الجلاء . كمثل لص تسور الابواب ، واقتحم الدار على أهلها ، واشاع في البيت الرعب والفش والفساد .. ثم أخيرا تفضل وتكرم ، وقرر أن يدع لأهل البيت غرفة النوم .. ويذهب هو ببقية الحجرات . . !

فلننظر الى الاستعمار نظرة واعية شاملة . ثم لنمض في طريق اجلائه أو افنائه .

***

النفوذ ، والاحتلال

قلنا : ان الاحتلال العسكري لمصر مظهر من مظاهر الاستعمار — ولا يزيد . . وهو وان يك أكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وافعلها في اثارة كوامن الحقد والثأر — الا انه لا ينبغي أن يشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار . . بل يجب أن يتجه كفاحنا اليها جميعا بعد حصرها وتحديدها . .

والاستعمار يعتمد هنا على شيئين .

ا — النفوذ السياسي . .

ب — الاحتلال العسكري . .

ولنبدأ بالحديث عن أولهما . . متتبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق ابادتها واجتثاثها . .

النفوذ السياسى .

ان بريطانيا تسيطر على حياتنا ووجودنا سيطرة سياسية محيطة .. وآراؤها ، وخططها هى عجلات الآلة الدوارة . . ونحن ـ شعبا ودولة ـ لسنا أكثر من الصوت الخارجى لهذه العجلات ..

انها امة لاتريد .. بل يراد لها ..!

● يراد لها أن تنشىء جامعة عربية ، تزيدها وهنا على وهن ، فتنشئها ..

● ويراد لها أن تبرم معاهدة لتوكد مشروعية الاستعمار فتبرمها ..

● ويراد لها أن تخوض حروبا مرتجلة ، فتخوضها ..

● ويراد لها عام «١٩٢١» أن تدخل فى مفاوضات مع مستعمريها لتمزق وحدتها ، فتدخل فيها ..

● ثم يراد لها الدخول فى مفاوضات أخرى ـ هى امتداد لنفس المفاوضات القديمة جدا .. فتسارع وتتهافت ..

● يراد لها أن يحكمها هذا الحزب ، فيحكمها .. ثم تتغير المشيئة ، ويراد لها أن يحكمها حزب آخر ، فتتم الامور على مايراد ..

ونحن فى كل هذه النقل والتغييرات والاحداث نظن اننا نتحرك بارادتنا ، ونفكر بعقولنا ونقف على أرجلنا ..!

ان تطهير «الارادة المصرية» من هذا النفوذ السياسى ، لايقل اهمية عن تطهير «الارض المصرية» من الاحتلال العسكرى ـ فاذكروا هذا جيدا . ودعونا نسأل : على أى شىء يرتكز النفوذ البريطانى؟.

هذه نقط ارتكازه ..

١ ـ المعاهدات :

عند مايريدالاستعماراستصبادامة واستثمارها يحاول جاهدا ان يربطها بعجلته عن طريق صك عبودي ـ يسمى في اللغة المظلومة .. « المعاهدة » !وبريطانيا تعلم ان هذا العصر الذى تعيشه الانسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الغزاةيروحون فى بلادها ويجيئون .. لذلك فهى تستعيض عنالاحتلال العسكرى بالاحتلال السياسى ـ اى بالمعاهدات .

وعن طريق المعاهدات يصلونالى كل الاغراض التى كان الاحتلال المسلح يحققها لهم

فباسم المعاهدات يحرمون حليفهم من التسلح ..

وباسم المعاهدات ـ يثيرونفى الشعب الحليف كل انواع الفتن والمؤامرات ..

وباسم المعاهدات ـ تجتازطائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتسارا ..

وباسمالمعاهدات ـ يحاصرون قصر الملك الذى تحالفهم حكومته ...

وباسم المعاهدات ـ تؤخذاقوات الشعب وخيراته ليطعم بها الجيش المحتل ـ وتباع الىالدول المعادية التى انشأها حلفاؤنا انشاء لتكون لنا شوكةالجنب على الدوام ..

وباسم المعاهدات يجترحالاستعمار ـ وهو يبتسم ـ كل المقابح التى كان يقترفها ، وهويزمجر .. !

والدليل الذى ليس بعدهدليل على ان المعاهدة هى بديل الاحتلال العسكرى .. تشبثبريطانيا بعقدها معنا .

لقد كناحسب أنناخلقنا فقطلنتألم .. ثم نموت .. بيد اننا

تبينا أخيرا ـ أننا خلقنا لنتألم . ونحالف بريطانيا .. ثم نموت .!
لماذا نحالفها ..؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها .؟

لقد حالفناها بمعاهدة «٣٦» وكان لهذه المعاهدة منا قصة البيغاء التى تجيد جميع اللغات .

أو تعرفونها معشر الزعماء .؟

اقرءوها ، فقد ترون فيها فائدة ودرسا ..

***

رووا ـ أن رجلا كان يملك « ببغاء » أعياه غباؤها المطبق ، فاجتهد أن يعلمها فقط هذه العبارة « لاشك فى ذلك » !

ثم خرج بها الى السوق ونادى :

ـ من يشترى ببغاء تتكلم بجميع اللغات ..؟ ـ وساق الحظ اليه زبونا مغفلا تقدم اليها وسألها :

هل تجيدين جميع اللغات .؟ أجابت : لاشك فى ذلك ..!

فاستخفه الطرب ، ونقد صاحبها كل ما معه من مال ـ

وهناك فى قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا اليه أصدقاءه من كل نحلة ولسان ،

وبعد تناول المرطبات قدم اليهم ، أو قدمهم الى ببغاء الشرف والكمال .. وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهى لا تجيب بغير هذه العبارة ـ لا شك فى ذلك ..!

وأدرك صاحبنا هول الكارثة ـ فلما انصرف الضيوف اقترب منها فى خطوات متهالكة ودار بينهما هذا الحوار : ـ

هو ـ اذن ، فأنت لا تعرفين شيئا .. ؟

هى ـ لاشك فى ذلك .

هو ـ واذن فأنا مغفل مخدوع .؟

هى ـ لاشك فى ذلك ..!

وحملهـــا من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتـدى اليه ـ وهناك أجلســـها أمامه وسألها : ـ

ـ ان بائعك هذا أفاق وغشاش ـ أليس كذلك ..؟

أجابت ـ لاشك فى ذلك ..!

قال ـ ويســـتحق الزجر والعقاب .. ؟ اجابت : لا شـك فى ذلك .

وقذف بها فى وجهه ، واسترد ثمنها ومضى ..

* * *

أليست قصـة هذه البيفـاء هى بالضبط قصة معاهدة «٣٦» مع فارق هام .. هو أن مخدوع البيفاء مسح الاهانة عن نفسه ، واسترد حقه المنهوب ..

لقد رجع زعماؤنا الينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها « ملكة جمال » المعاهدات ..!

وفى غمرة الحفاوة بها ، وقبل أن يجف مدادها سألناها :ـ

ـ أيجوز أن يبيعنا الانجـليز غداة توقيعك ذخيرة «كذابة» .؟

أجابت : لاشك فى ذلك !

ـ أليـــق أن يتخـلوا عن التزاماتهم نحـــونا فى معـــركة فلسطين ؟

أجابت ـ لاشك فى ذلك .!

ـ أيجوز أن يتقاضوا منـــاثمن أسلحة .. ثم يحنثون بالعهد ويبيعون السلاح لاسرائيل ؟

أجابت ـ لاشك فى ذلك !

ـ أيجوز أن يشيدوا فى بلادنا مدائن باذخة ، بعـــد أن كانوا

يسكنون قصرا متداعيا على ضفة النيل ..؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

أيجوز أن يمخروا مياهنا حاملين البترول والمعدات لاسرائيل التى لا تزال تتربص بنا ..؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

ـ اذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال .. ؟

أجابت : لاشك فى ذلك .!

ـ واذن ، فنحن مغفلون مخدوعون ..؟

أجابت ـ لاشك فى ذلك .!

***

ان كل معاهدة تعقد اليوم ، أو تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون أحسن حظا من سابقتها

وان الطريق الوحيد المفضى لعهد شريف ابى عزيز ان يجلو عن بلادنا النفوذ السياسى والاحتلال العسكرى لبريطانيا . ثم بعد ذلك نفكر بعقولنا ، ونريد لأنفسنا بأنفسنا .. أما معاهدة يساومنا بها المستعمر على استقلالنا فأهون منها عدمها .. وبقاء الاستعمار غير متلفع بأردية كاذبة خادعة من الاتفاقيات والمعاهدات .

أيجوز بعد كل هذا أن نحالف الذين جعلونا سخرية وهزوا ؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله حبال هذا العهد فى سورة عاصفة ابى ان يبداها ببسم الله الرحمن الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :ـ

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

ـ « خذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد » .!

وانجلترا نفسها تأسست بالقرآن في ظروف مشابهة .. مع انها كانت تمثل جانب البغي والعدوان .. فحين هب رشيد عالي الكيلاني في وجهها قالت : هذا خرق للمعاهدة . وبعد ساعات . كانت السماء تمطر جنودا حاربوا العراق حربا خاطفة عصوفا

ولقد كان الوضع الطبيعي ، وقد خرقوا ما بيننا من عهد اكثر من مرة أن نصنع ما كانوا لابد صانعيه لو انهم مكاننا ـ فنأخذهم .. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .

* * *

قد يقال : ان بريطانيا اليوم غيرها في الامس البعيد والقريب ـ بريطانيا العمال ـ غير بريطانيا المحافظين الا فلنستمع اذن لآية فاصلة من انجليزي عريق تمرد على سياسة بلاده وحرض عليها جميع البشر وكشف للناس عن « ثعبانيتها » وتأصل الغدر فيها ـ ذلكم هو توماس بين

فلننصت لكلمته .. ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع ان ترد الى المومس طهارتها الاولى .. ؟ ان السياسة البريطانية كذلك ـ فقدت الى الابد شرف القصد ، وطهارة الضمير » ! !

ولكن قد يقنعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلا آبقا عاقا ..

فلندرس أخلاق سياستهم اذن على ضوء عبارة اخرى قالها قطبهم الاكبر « دزرائيلي » واتخذوها مبدأ وشعارا ـ تلك هي : ـ

« اكذب ... واكذب ... ثم اكذب دائما ، فلابد أن تجد من يصدقك » ؟!!

ان الانجليز لا يصلح معهم عهد ابدا ـ الا اذا كان مع قوم

اولى بأس شديد يخافونهم ويرهبونهم ..

ونستطيع أن نفترض حسن نيتهم اذا عاهدناهم من جديد ، وننسى طغاوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا أيضا لا يكون من صالحنا قط أن نتخذهم حلفاء أو أصدقاء ..

لماذا ..؟

لأن الانجليز تعودوا دائما أن يتخذوا من حليفهم « كبش الفداء » ولقد ذاق الامريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ، وسربوا غيظهم أيام الحرب الاخيرة في سخريات .. فمثلا :

دخلت سيدة أمريكية المسرح ، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون جميع المقاعد الامامية ، فقالت:

ـ ان الانجليز في المسارح يحتلون الصفوف الامامية ـ ويتركون الخلفية لنا ـ ولكنهم في الميدان يحتلون الصفوف الخلفية ، ويتركون الامامية لأبنائنا ..!

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الانجليز فالمعاهدات التي تربط الضعيف بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة ، وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال وأحر بنا أن يحتلنا الانجليز باكراه ، من أن يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

***

شاهد من أهلها

ثم ان أي معاهدة جديدة تربطنا بالانجليز ، سيكون عصبها الدفاع المشترك .. وهذا الدفاع المشترك .. كائنا ما كان اسمه وطريقته ـ يقف في الوجهة المغايرة للسيادة والاستقلال ..

ولسنا نحن الذين نقول ذلك ـ بل هو السيد « بيفن » نفسه ـ والى زعمائنا الابرار .. نقدم هذه العبارات التي قد تنير لهم الطريق .

فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ـ وقف مستر بيفن يخطب فى مأدبة الغرفة المصرية البريطانية فقال مخاطبا الاعضاء المصريين :

« .. ولكن يجب أن يبقى ما ندعوه بالدفاع المشترك . لأنه لا غنى لأحدنا عن الآخر ـ وان الاستقلال آت لا ريب فيه .! »

اذن فالدفاع المشترك شيء آخر ينافى الاستقلال ولا يظاهره

وبيفن يريد منا سنة ١٩٤٥ ان نوافق على الدفاع المشترك . ويطمئننا على ان الاستقلال آت فى ميقات مجهول . . قد يعلمه « بيفن » ولكن المصريين آخر الذين يعلمون . . . والذين لا يعلمون . . !

وبهذا المقدار من الحديث نرجو ان نكون قد وقفنا على مافى التحالف مع الانجليز من غرم وبوار .

وسنتحدث عن وسائل الخلاص بعد ان نتم سرد بقية القواعد التى يرتكز عليها نفوذ الاستعمار .

ب ـ الارجاف بالشيوعية والحرب

ان بريطانيا المومس ـ لن تسترد طهارتها الاولى ـ هذا اذا كانت السياسة البريطانية قد أتى عليها حين من الطهر والنقاء ،

انظروا .. ان اسلوبها الاستعمارى لم يتغير ..
والاحفاد من ساستها يسيرون وراء الاجداد حذو النعل .. بالنعل . .

فيوم دخلت بلادنا لاول مرة . زعمت انها آتية لتثبيت سلطة الباب العالى ، وطرد الفرنسيين الطغاة ..

وكانت انجلترا يومئذ تتزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة الفرنسية .. ولما يمكن ان يترتب عليها من تغيرات اجتماعية خطيرة ..

ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . . وقف رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وقال : ـ

« يجب ان نعاون الالمان على النصر والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . »

وفى سنة ١٩٣٦ — بدأت انجلترا نفسها تتزعم مقاومة عاتية ضد النازية — وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعها على معاهدة فاشلة هى معاهدة « ١٩٣٦ »

واليوم لا خوف من ثورة فرنسية ، ولا خوف من النازية . نبم تبرر انجلترا بقاءها .. ؟ بالشيوعية طبعا .. !

فلتكن الشيوعية خطرا على بريطانيا كل الخطر ..

ولتكن بريطانيا موطدة العزم على محاربتها فى عرينها الاول روسيا ..

ليكن ذلك ..

ويبقى ان نتساءل : ما صلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

ما لنا وبريطانيا تحارب او تحارب ، تظفر أو تهزم .. !

هل نحن احدى كتائب جيشها الثامن .. ؟

او نحن واياهم كما قال الشاعر العربى القديم :

أكلما حاربت خزاعة تدعو نى كأنى لأمهم جمل ؟

ان « الشيوعية » ضوء احمر تسلطه بريطانيا على عيون الحاكمين لتزيح به ابصارهم عن الهدف المتمثل فى طردها ، واجلائها

ما ذا كان يعنى بيفن حين قال اكثر من مرة — وفى مناسبات عدة .. ان الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات اذا دخلت مصر .؟!

قالها مرة فى حديث صحفى .. وقالها لسفيرنا فى لندن ونشرتها مجلة المصور ضمن الوثائق السرية التى اذاعتها عن محادثات « عمرو — بيفن » .

أليس ذلك ارجافا وتخويفا تهدف السياسة البريطانية بهما

الى فل ارادة الباشوات والحاكمين وعزلهم عن حركة المقاومة التى يدخرها الشعب للانجليز ... ؟

لكن الباشوات الذين عرض بهم بيفن سيخلفون ظنونه . . والذى يتخلى منهم عن جهاده امته لن يضيرنا ولن نعير به — لانه ساعتئذ لن يكون مصريا .

الم يقل لنا « توماس بين » ان الموسم لا تسترد طهارتها الاولى .. ؟

ان السياسة التى احتفرت وقيعة قديمة بين توفيق وعرابى، وبين الباشوات والشعب . تريد اليوم ان تلعب نفس الدور، فتلقى فى روع الحكام والزعماء ان الشعب يترصد لهم لينهى حياتهم بفاجعة .. ويوهمون الشعب أن كبراءه ، وحكامه — يعملون معهم ضده . .

ولن تقر للموسم عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الاثيمة والوخيمة التى حققتها بالامس .

وهذا يفتح اعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التى يعتمد عليها نفوذ الاستعمار .

شعث باسنا بيننا .

والسياسة البريطانية لكى تبقى وتسود ، تورى نار البغضاء والفرقة ايراء موصولا . . وتذر شعبنا المسكين يمور فى حديدها المفرغ ، وصخرها الاصم . .

وهى فى ذلك ذات براعة ومهارة . . ليست كالمفعل الاكبر « موسوليني » الذى كان يقيم لرعاياه المتدمرين حرب «المقلاع»!

بل هى تضن علينا حتى بثمن الرصاص الذى تفرغه فى صدورنا . . وتتركنا نحن نشترى الرصاص بأموالنا — ثم تحرضنا، فنطلقه لا فى دماغ الاستعمار فنفجره تفجيرا .. بل نمزق به انفسنا ، ونهرق به دماءنا ..

وهى تعتمد فى تأليب بعضنا على بعض على سلاح تناهى فى الخطورة هو ـ تشريد الثقة التى تربطنا ، واشاعة روح الاتهام فى المجتمع .. ولقد أفضى سعيها الخبيث فى هذا السبيل الى ما نحن فيه اليوم من استرابة فى كل اخلاص ، وتصديق لكل شائعة واتهام .

لقد قلنا من قبل : ان لبريطانيا سفارة اخرى غير رسمية .

سفارة مجهولة تحيط بكل شىء علما .. وتملأ ضمير الامة شكا وريبا . .

ومهمتها الاولى تشويه سمعة الزعماء والناصحين حتى لا يؤمن بهم الشعب ..

وهذا نبأ قريب ، من آلاف الانباء التى توكد هذه الحقيقة أعمق توكيد .

ـ فى اثناء الحرب الاخيرة ، اوفى بداءتها ـ وقف الاستاذ الاكبر المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغى » وقال فى خطاب احد اعياد الهجرة :

« ان العالم الاسلامى لن يخوض حربا لا ناقة له فيها ولا جمل . . »

وفى صبيحة الامسية التى اذيع فيها هذا الخطاب ـ كانت شعوب الشرق الاسلامى تردد ـ فيما نظن ـ هذه العبارة المستنيرة ..

واسرها الانجليز فى أنفسهم . . واصدرت السفارة غير الرسمية اوامرها الى « لجنة الاشاعات والتهم » ان تشكك الجماهير فى قيمة الشيخ المراغى ، وفى سلوكه . . وذات يوم ، وفى اعقاب صلاة الجمعة ، اذا بالسماء تمطر سيلا من المنشورات . . تزعم ان الشيخ المراغى حضر ليلة « كذا » حفلة ساهرة بالسفارة الانجليزية . . وانه شرب الخمر حتى فقد صوابه .. !

ان الانجليز لا يهدفون بمثل هذا التشهير الى هدم القيمة

الشخصية والشعبية ، للمواطن المخلص وحسب . . بل هم يستهدفون غاية ابعد ، وهدفا أخطر . .

فهم يعلمون ان مجرى حياة الامة هو مزيج احساسها وتفكيرها — وتسميم هذا المجرى يتاتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا — ليفسدوا علينا امرنا كله .

وهم قوم لا يعجزهم ان يفتاتوا ويكذبوا —

ان نبيهم دزرائيلى علمهم أن يكذبوا — ويكذبوا دائما . . فلا بد ان يجدوا من يصدقهم . .

ولقد وجدوا فعلا من يصدقهم . .

وا أسفاه علينا . . !

ما اسرع ما نصدق ، وما اسرع ما نحاكى . . فنحن لم نصدق خرصهم فحسب . . بل ذهبنا نحاكيهم فى الارجاف ويلتمس بعضنا لبعض التهم والعيوب

كثيرون منا من أشبع بهذا السلوك النفسى روحه . . وصفا اليه قلبه . . وصار يعتمد فى محاربة مخالفيه فى الرأى على هذا السلاح الموتور .

وان اقدامنا لتتعثر بهؤلاء الذين وقفت أخلاقهم عن النمو . . اذا جاءهم احد بما لا تهوى أنفسهم ، قالوا :

هذا صنيع جماعات تبشيرية — وطليعة حرب صليبية . . او مؤامرة شيوعية . . !

وقد تلتقى بهؤلاء المرجفين انفسهم يقولون فى غباء مضحك :

— ان الاسلام أخذ الشيوعية ، واخذ المسيحية ، وصنع منهما معا نظاما اسمه الاسلام . . ثم لا يتهمون أنفسهم — طبعا — بأنهم شيوعيون ، ولا صليبيون !

مساكين . . انهم ضحايا الاستعمار الذى افسد علينا أنفسنا . . وشرد ثقتنا بها ، وبالآخرين .

الخداع بالهيئات الدولية ..

ان الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا . . وهو يعلم روح العصر الذي نعيش فيه .. هذا الروح الانقلابي المتحرر الذي لا يريد ان يرضخ لضيم ، ولا ان يساوم كما تساوم القطعان ..

لذلك اصطنع هيئات دولية تكون اداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة ..

فلو لم يكن في الدنيا آفة تسمى « مجلس الامن » لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها — يوم كانت تمور مورا عنيفا عقيب وضع الحرب اوزارها ..

ولكننا اتجهنا الى مجلس الامن ، وهيئة الامم .. وران علينا الركون .. وقامت فتن .. وأصبحنا اليوم في شغل بأنفسنا عن عدونا — وهذا ما يريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية ..!

ماذا صنع لنا مجلس الامن ..؟

لقد أوصانا بالاناة ، والحلم ، وحسن الضيافة .. !

وماذا صنعت هيئة الامم ..؟

لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا « صلاح الدين بك » وعطلت جلساتها يوم عيد الاضحى الماضي ، احتراما لنا ومجاملة كريمة منها .. !

هذه هي التضحية الوحيدة التي ضحت بها الهيئة من أجلنا . شكر الله لها ، ورعاها .. !

الا انه اذا أراد قادتنا وحكامنا ان يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه الهيئات ومناقبها كثيرا .

اما نحن ، فنريد لهم مزيدا من العقل والفهم .. لذلك لن نحدثهم عن مناقبها .. بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

ان هذه الهيئات التى يخدعنا الاستعمار بها ـ ويتظاهر بالتفزع حين نلوح بالاختصام اليها ـ هى « القـابلة » التى استقبلت « اسرائيل » على كفيها الآثمتين . وقالت لها كونى شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك .. !!

هى التى وقف « النقراشى » تحت سقفها ، يقول ما لم يقله احد قبله ، وما لن يقوله احد بعده .. والاعضاء المحترمون يتثاءبون .. حتى اذا قام ممثل بريطانيا ليتكلم .. اصغوا اصغاء جميلا ، وصدقوا افكه ـ وتركوا مصر لا تزال تعج فى قيودها الفلاظ ـ الثقال .. !

وكل محاولة ، ولو فاجرة ، لدولة كبرى ـ تسارع هذه المنظمات الدولية لمناصرتها .

فاذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة .. ولعن الله من ايقظها .. !

ان احسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات ـ تلك العبارة الجامعة لكاتب أمريكى نعتها بأنها « وكالة حكومات » ..

فلينكشف عن ابصارنا غطاء الوهم .. ولنوفر ما نسفكه فى تلك الهيئات من وقت ، وجهد

ولناخذ الحكمة ، ولو من وايزمان .. الذى كتب لأمته يقول :

« ما من دولة فى العالم بنيت بوعد ، أو مرسوم .. انما يبنى الدول ، كفاح الشعوب عبر الاجيال . . »

لا مجلس الامن ، ولا هيئة الامم ، بقادرين على منحنا الحرية والاستقلال ـ الا اذا منحناهما نحن القدرة أولا .. من كفاحنا الحاد ، وصراعنا الرهيب .

د ـ الاحتلال العسكرى ..

وختام هذه المرتكزات التى يعتمد عليها ـ الاحتلال العسكرى

ان الانجليز متشبثون ببقاء جيشهم جاثما فوق استقلالنا وكرامتنا ـ لا خوفا من روسيا . ولكن خوفا منا نحن .. ان تاريخهم الاسود معنا يفزعهم ، حريتنا كاملة ، فلن نختارهم ويوحى اليهم أننا حين نملك حلفاء ، ولا أصدقاء ..

لقد قال الشعب رأيه فيهم .. وهو لا يخرج عن رأى صاحبهم « توماس بين » !

وقالت الحكومة رأيها واضحا كفلق الصبح فى مجلس الامن .. قالت : (١)

« ان الانجليز فضوليون ، يعرقلون توثيق روابط الوحدة بيننا ، ويعملون على هدمها . ويخلقون الاقليات ويشجعونها ، ويبقون البلاد فى حال من التأخر ، والشقاق ..

« .. ان العهد الذى بيننا وبينهم بمعاهدة « ٣٦ » ليس سوى أثر من آثار القرصنة التى نجهد فى نسيانها .. ولم يبق فى هذه المعاهدة الا ما يهدد السلام .

« .. ولا ريب أنكم ستكونون عونا لنا على استئصال هذا السرطان الذى ينتاب السلام فى وادى النيل .. »

بعد ابدائنا هذه الآراء فيهم ـ حكومة وشعبا ـ فقدوا كل أمل فى مودتنا ـ واعتقدوا أننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم ، وربما من أعدائهم .. لهذا قرروا الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا ما ربهم منا كرها ، واقتسارا ..

ان بريطانيا تضمر لنا زراية أكيدة ، واحتقارا كبيرا .. بل هى لا تضمر ذلك .. وانما تنادى به وتصيح . وشاهدنا على ذلك مستر أتلى نفسه ...

---

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الامن

لقد وقف خطيبنا فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين يوم ٥-٩-١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : - (١)

* *

« .. لقد قابلنا العدوان الشيوعى فى الطريق حين تركنا الهند ، والباكستان ، وسيلان - تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »

أرأيتم يازعماء مصر .. ؟

أسمعت ياشعب مصر .. ؟

بل أسمعتم يا ضحايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام؟ لو كنا مصدر اخافة وخطر .. لتركتنا بريطانيا نتمتع بحريتنا ، وسيادتنا .. ولو ان بريطانيا ترجو لنا وقارا - مثل الوقار الذى ترجوه الهند وجاراتها . لتغير تاريخنا .. أو على الاقل ، لم نكن ستجد ذلك الضابط البريطانى الذى يطرد من أمامه ضابطا مصريا دخل عليه مكتبه فى « فايد » قائلا :

اخرج .. أنت هنا فى أرض انجليزية ..!

هذه - مجتمعة - هى الاستعمار ..

ا - المعاهدات ..

ب - التخويف بالشيوعية والحرب ..

ج - اغراء بعضنا ببعض ..

د - الخداع بالهيئات الدولية .

هـ - الاحتلال العسكرى

والآن .. أين الطريق .. طريق الحرية والخلاص . ؟

هذا هو الطريق ..

فى نقيض الوسائل التى يتوسل بها الاستعمار لدعم نفوذه - تتمثل

(١ - آخر لحظة العدد ٨٨)

وسائل تحريرنا وظفرنا ـ فاذا كانت أولى وسائله ، المعاهدات . فليكن نهجنا .. لا معاهدة !

اننا مع بريطانيا فى مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم ننل منها سوى تمزيق صفوفنا ، وتحطيم مقاومتنا .

وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا ـ لا يشجع أبدا على التفاؤل بمستقبل أخلاقها السياسية .. ستظل كما هى تتوسل بكل موبقة لمنافعها الخاصة ، وأغراضها الاستعمارية ..

وما من زعيم مصرى ، الا وصرخ بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم . ونحن نهتم جدا بآراء زعمائنا خارج الحكم لانها غالبا لا تكون ثمرة حرص ولا غرض ..

فى يوم ٣١ـ٧ـ١٩٤٨ ـ صرح عزام باشا لجريدة المصرى هذا التصريح :ـ

« ان موقف انجلترا معنا فى هذه الحرب ـ يعنى حرب فلسطين ـ دليل واضح على أن معاهداتنا معها لا قيمة لها ، الا حيث تكون المصلحة الانجليزية .. ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة أن يرضى بحلف مع بريطانيا كل نتائجه بالنسبة لنا أن تمتنع فى أيام شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات »

هذا كلام رجل مسئول ، نختاره من دون الرجال والزعماء ، لأنه شخصية محايدة ـ ويحتل مركزا محايدا ـ وهو لهذا أبعد من غيره عن مواطن الريبة فى أحاديثه السياسية ـ على الاقل .

ولنكن واقعيين ، فنسأل :

من اذن نحالف .. غير بريطانيا ؟

هل نحالف أمريكا مثلا .. ؟

كلا .. ان أمريكا شريكة الاستعمار البريطانى فى كل جريمة منذ غادرت عزلتها .. وانطلقت فى شره واستكلاب نحو السيطرة السياسية على العالم ، وعلى البترول ..

ولقد جاهر ايضا بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن فى حديث مسهب طويل ..

وكتب مراسل من امريكا يصور وجهة نظر وزارة الخارجية الامريكية فى قضية مصر بالذات ، فأسمعوا ماذا يقول : ـ

« ان وزارة الخارجية الامريكية ترى أن جلاء القوات البريطانية من مصر ، لا بد أن يعقبه اشراك مصر فى الكتلة الغربية للدفاع عن البحر الابيض المتوسط ، ومناطق الشرق الاوسط ، وافريقيا .. وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان ومد مصر بالاسلحة .. ثم ضمها الى ميثاق الاطلنطى خاصة اذا ضمت تركيا اليه ..

«ولكن وزارة الخارجية الامريكية **تشعر بأن الوقت لم يحن بعد لان تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول الكبرى فى الدفاع عن الشرق الاوسط ..!**

«والسياسة الامريكية التى تخضع الى حد كبير للنفوذ الصهيونى ، لن تسمح بهذا لانه **يؤدى الى الاضرار بمركز اسرائيل .. !**

«وبالرغم من ان مصر دولة مستقلة ، فان وزارة الخارجية الامريكية لاتزال تعتبرها **منطقة نفوذ بريطانية** ـ وهى لاتنظر اليها نظرتها الى تركيا والباكستان ، كدولة ذات شخصية دولية مستقلة » .. !!

فليحفظ المصريون هذه الحقائق ـ كما يحفظون السورة من القرآن .. او الآية من الانجيل ..

● ان السياستين الامريكية والبريطانية شىء واحد فيما يتصل بقضيتنا .

● الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفا من أن نستعمل السلاح ضد اسرائيل .. وليدهم الناشىء المدلل ..

● والاتفاق تام كذلك بينهما على أن تظل مصر دولة صغرى .. ومنطقة للنفوذ البريطاني ، يطلق فيها يده كما يشاء ..!

والدليل على هذا أن امريكا نفسها تقدمت للمسئولين في مصر بنصيحة فحواها - ان نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق المفاوضة ..

من اذن نحالف غير بريطانيا وامريكا ..؟

واجيب - فلنحالف انفسنا .. ولن نجد أحدا سوانا يستطيع أن يدرأ عنا الاعاصير . وصدق المتنبي :

خليلك انت ، لا من قلت خلي
وان كثر التجمل والكلام

واذا كان الحياد اليوم قد أصبح منوطا بمؤثرات خارجة عن ارادة الامم التي ترغبه وتريده ..

واذا كان لا غنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن عزام باشا التي سلفت .. ولنستمع لصوت مصري مسئول آخر - هو الاستاذ حسن سليم بك - رئيس مكتب الاستعلامات المصري بنيويورك :

لقد وقف في النادي الدولي للطلبة بجامعة « كولومبيا » وقال :

« ان روسيا لم تهاجم مصر قط .. اما انجلترا وفرنسا فقد هاجمت كلتاهما مصر اكثر من مرة .. »

كلمة واحدة ، فاسمعوها ..

اما ان نحالف انفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من يريدهما .. واما اذا لم يكن من الحليف بد ، فلنحالف روسيا ..

روسيا .. ؟!

نعم .. روسيا .. وهل بدارة يا للناس من عار ..!

نحـــالف روسيا الدولة .. لا الشـيوعية . . المذهب . .

لقـــد حالفتها امريكا ـ ولاتزال ملاذ الراسمالية ..

وحالفتها بريطانيـــا ، ولم تصر شيوعية ..

ومنـــذ اربعة اعوام تقريبا حاولت امريكا ان تعقد خلســـة اتفاقا مع روسيـــا دون ان تعلم بريطانيا وفرنسا .. لولا ان اعلن مولوتوف ذلك في اذاعـــة له فضحت الدولة المحترمة جدا .. امريكا ! ..

ان دولتي «المحور» بريطانيا وامريكا ـ لاتســـاعدانا ، ولا تدعان الغير يساعدنا ..

لقـــد حرمونا من السلاح .. بينمـــا ابدت روسيا استعدادها لتزويدنا بالسلاح الذي نريد .. ولكن « المحـــور الاستعماري » هدد حكوماتنـــا ، وحذرها .. فالى متى سنظل نجبن ، ونخاف؟

لقد وافقت بريطانيا بعد طول تذلل ورجـــاء ان تورد لنا بعض الاسلحة في عام ١٩٥٦ ..

اتدرون ـ لمـــاذا ..؟

لكي تكون اسرائيـــل قد بلغت من القوة والتمكن مايجعلنا نحجم من استعمال السلاح ضدها ..!

هؤلاء هـــم الحلفا الشرفاء ..!!

وفي نفس الوقت عرض وزير روسيا المفـــوض باسم حكومته على حكومتنا استعداد روسيـــا لتزويدنا بكل مانحتـــاجه من طائرات ، واسلحة ثقيلة وخفيفة ـ على ان تسلمها لنا من فورها .. ليس ذلك فقـــط .. بل وابدت استعـــدادها لتسليمنا مايلزمنـــا من آلات الصناعة والزراعة الحديثة ..

فماذا كان جواب حكومتنا ..؟

تجيبنا على ذلك صحيفة تنطق باسم الحكومة فتقول :

« والمفهوم أن ولاة الامور قد تلقوا هذه العروض بالشكر » !!

***

كونوا انجليزا ..

لماذا تصر بريطانيا على أن تربطنا بعجلتها هى وامريكا ؟

لماذا تريدان ان تسخرانا لمحاربة روسيا .. ؟

أليس يرضى بريطانيا أن نكون بريطانيين .. وان نتخلق بأخلاقها الطاهرة الفاضلة .. ؟!

سنصنع ذلك . !

واذن فاسمعوا .

عند ماثارت بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ ـ طلبت روسيا ، والمانيا ، والنمسا الى انجلترا أن توقع مذكرة احتجاج قاسية على تركيا .. فرفض رئيس وزراء بريطانيا آنئذ وهو ... «دزرائيلى» وقال : ـ

« كيف تساعد انجلترا فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها .. ؟

« وكيف تتعاون مع بسمارك الصديق الذى لايعتمد عليه ؟ »

رضى الله عن دزرائيلى هذا .. وسنردد اليوم نفس كلمته ، ونقف نفس موقفه .. ونقول : ـ

كيف تساعد مصر فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها . . وهى روسيا .. ؟

وكيف نتعاون مع بريطانيا .. الصديق الذى لا يعتمد عليه .. ؟!

هذا اذا تسامحنا ، وافترضنا بريطانيا صديقا ..

واذا ماسئلت : كيف يكون لمصر صالح فى بقاء روسيا سليمة قوية .. ؟

أجيب : سلوا مستر « اتلى » فهو الذى يقول ذلك ـ لاأنا ..

واذا كنتم قد نسيتم .. ، فأعيدوا تلاوة كلمته التى مرت بنا من قبل ، والتى قال فيها:

«لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند والباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »

اذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الامم استقلالها ..

ويوم ينتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى أن تسلم لنا بحقوقنا كافة..

ان بريطانيا تتدلل علينا ، وتستهتر بنا ـ لانها على يقين بأن سادتنا لن يمدوا أيديهم البضة المترفة الى روسيا أبدا

ووالله لو أحست أدنى احساس بأننا سنفعل لتكون أسبق الى ماتريد منا أنفسنا ..!

فلنحالف روسيا دون أن نكون شيوعيين ـ ان ذلك ممكن جدا بدليل ماقلناه من ان بريطانيا وأمريكا حالفتاها دون أن تصيرا شيوعيتين .

انه فى الوقت الذى تصرح فيه امريكا بأن مصر منطقة نفوذ بريطانية .. يعلن وزير خارجية روسيا فى حديثه لجريدة المصرى فى ١٩٥٠/١١/ ٢٧ مايأتى :

«لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين ان الاتحاد السوفييتى سيظل دائما فى جانب الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار البريطانى ، وعند ما عرضت المشكلة المصرية على هيئة الامم المتحدة منذ أربع سنوات ـ دافع الاتحاد السوفييتى عن حقوق هذه البلاد التى أصيبت فى كرامتها بوجود القوات الاجنبية فى ارضها ـ وفى كل عمل تريد أن تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصرى للتخلص

من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفييتي دائما الى جانبهما ..

« ان مكافحة الاستعمار لاتتحدد في نظرنا ، ضمن نطاق بلد أو بلدين ، بل انها ترى وجوبها في كل بقعة من بقاع العالم »

« ان الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصري يجب ان يعترف بها ، وان تتحقق .. »

***

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين . . موقف بريطانيا وامريكا من جانب .. وموقف روسيا من جانب آخر نتردد في اختيار حليفنا ، اذا كان لابد لنا من حليف .. ؟

الاشتراكية . . والسلام ..!

واذا كان المرتكز الثاني للاستعمار في بلادنا هو تخويفنا بالشيوعية ، وبالحرب .. فليكن موقفنا من الشيوعية ان نسبقها بالاشتراكية .. ونطبق من نظمها ما يسمح به تطورنا وامكانياتنا ..

ثم لماذا نخاف الشيوعية .؟

لقد اعلن «ستالين» ، واعلن ايضا «فيشنسكي» ان الشيوعية والراسمالية تستطيعان ان تعيشا بلا حرب ولا خصام ..

ولكن الانجليز يخوفوننا بالشيوعية لنرتمي في احضانهم ، بل ويصنعون لانفسهم حركة معينة موسومة بالشيوعية لينفذوا عن طريقها اغراضهم الاستعمارية الخبيثة .. !

واذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام ...

انه يوم يقر في ذهن السياسة البريطانية اننا لن نحارب معها ولا في سبيلها .. واننا لن نسمح لبريطانيا ولا لامريكا ولا لروسيا — أن تكون بلادنا ميدانا لجيوشها .. وحقلا لتجربة

مصلحتها ، فان بريطانيا ستفكر في مسألتنا تفكيرا سديدا .

فلنردد كلمة المراغي من جديد لن نخوض حربا لاناقة لنا فيها ولا جمل ..

ولنعلن من اليوم أننا «سلاميون» نريد السلام ، ونقف بجانبه ..

ولكن — أي سلام نريد ..؟

لقد صار السلام في عالم اليوم صنوفا وألوانا ..

اننا نريد السلام الذي تثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه ظروفنا الخاصة دون أن نتأثر في هذا بأية مؤثرات أجنبية أخرى .. وبعد ذلك لن يضيرنا أبدا أن ننافح عن السلام ، ونتشبث به ..

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا يخطب في مؤتمر نقابة المحامين الفرنسيين يوما فقال : —

« لقد عرفت فرنسا الاحتلال الاجنبي ، وذاقت مرارة الاعتداء ولذلك فشعبنا سوف يدافع عن استقلاله الوطني بكل شجاعة — الا اننا لانريد أن نخاطر بكياننا مخاطرة جنونية .. ولذلك نريد السلام لان السلام العالمي شرط أساسي للاستقلال الوطني . . »

واذا كان الشعب البريطاني قد وجد من الحرية مايجعله يصرخ يوما في وجه وزير حربيته **لا حرب من أجل الدولار . . .** فاننا نمنع أنفسنا من الحرية ما نصرخ به في وجه المستعمرين « لاحرب من اجل الدولار ، ولامن اجل الاستعمار ..

* *

وخطب السنيور (جونلر) وزير المعارف الايطالية ، وعضو الحزب الديمقراطي المسيحي فقال : —

« ان السياسة الخارجية للوزارة الايطالية قائمة على مبدأ

دستورى هو ـ اننا ضد الحرب .. وضد أى عدوان على أرض الوطن .. »

ان الاستعمار يعمل فى كل مكان لاعداد ضحاياه الحرب

وان خبراء الحرب من رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمعسكرات .. وبكل تبجح ووقاحة يتصرفون فى أخص شئوننا كما لو كنا أحد شوارع لندن ، أو باريس ، أو وشنطن .!

ولقد بلغت الجرأة بالقيم الفرنسى أن قال :

«اذا قامت حرب عالمية أخرى .. فسأركض الارض برجلى ، فينبثق منها جيش جرار من المغاربة » ..!!

واجابه الامير عبد الكريم الخطابى بمنشور لافح خاطب فيه بنى وطنه قائلا :

« ان عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم أن ترفضوا دعوة الفرنسيين الى التطوع فى جيوشهم . لانهم يدفعون بكم الى التضحية فى سبيل المحافظة على امبراطوريتهم المتداعية ..

«ان ساعة تحريركم من ظلم المستعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم الى جيوشه»!

مؤامرة على مقدساتنا ..

وبلغت الجرأة بأمريكا أن تجعل من « الظهران » قاعدة حربية لضرب روسيا بالقنابل الذرية ...

وما الظهران هذه ... ؟

انها أرض بالحجاز بينها وبين المسجد الحرام ، ومسجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة أو هو أقرب ...

ترى هل ستظل روسيا ساكنة ساجية ازاء هذه القاعدة الحربية التى ستنقذف منها حاملات الموت والدمار .. ؟

كلا .. وعندئذ ستحاول لا محالة ضربها ، وضرب ما حولها

.. والذى حولها ـ يا اربعمائة مليون مسلم ـ هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق .. !

لماذا لم تتخذ أمريكا من الفاتيكان قاعدة حربية .. ؟

لانها تخاف عليه ، وتقدسه .. وتغار على ساحة القديس بطرس أن تمسى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات .. !

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار أمريكا للظهران قاعدة حربية بحروف بارزة صارخة .. ومع هذا لم يتحرك أولئك الذين استطار بهم الذعر يوم هممت بعض أعمدة المسجد النبوى أن تنقض وتتداعى .. !

ترى هل المسألة من السهولة واليسر الى الحد الذى لا يستجيشهم ، ويثير غيرتهم .. ؟!

انها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها أمريكا يا سادتنا المؤمنين ..

فنحن لانضمن ، وفى ضباطها يهود كثيرون ـ أن يضرب أحدهم فى غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لا نضمن أن تصنع أمريكا نفسها ذلك لتصطاد عصفورين بحجر .. فتدمر هذه المقدسات أولا .. وتذيع أن روسيا هى التى اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانيا .. !

ان هذه الخطة الوقحة ، التى اختطها الاستعمار الامريكى ، لتفتح أبصارنا على حقيقة مستيقنة ـ هى أن أى تمكين دبلوماسى أو تجارى لدول المحور الاستعمارى فى بلد يفضى بها الى كارثة ...

لقد دخلت أمريكا الحجاز تاجرة ... تستخرج البترول وتبتاعه ... وبعد عشية وضحاها أصبحت مستعمرة .. مستعمرة بكل معانى الكلمة .. وأنشأت دون اكتراث العالم الاسلامى كله قواعد حربية فى أرض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك ..

لترجع أمريكا من فيهـا ، ولتغادر الارض المقدسـة التى دنستها .. والتى تريد بها مزيدا من الدنس والدمار ...

☆☆

ولتخرج انجلترا من بلادنا اذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ؛ فاستعمارها أكبر مخرض عليها ، وداع اليها ..

واذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم اننا ـ حكومة وشعبا ـ قد آثرنا السلام ، وقررنا الا تكون المنطقة التى تدور عليها طاحونة الاستعمار.

لينق بعضنا ببعض

واذا كان الاستعمار البريطانى يتوسل ايضا لبقائه بتبديد ثقة كل منا بمواطنيه .. ويرسل الاشاعات الكاذبة ليفسد بها ضمائرنا فلنضع نحن اصابعنا فى آذاننا ..

وليس ثمت واجب يتجلى فيه الالتزام الفردى ، كهذا الواجب .

فلاتصدقوا اشاعة ولا اتهاما .. ولا تروجوا لاشاعة ، ولا اتهام ..

لقد سأل الرسول عليه السلام رجلا يتهم آخر فقال : « اترى هذه الشمس ؟.. »

قال : نعم ..

قال الرسول : على مثلها فاشهد ، او دع ..

وكان يقول :

« لا تبلغونى عن اصحابى شيئا ، فانى احب ان اخرج اليهم منشرح الصدر .

واخبر ان أبغض الناس اليه، وشرهم مكانا عند الله .. الملتمسون للأبرياء العيب .

اذا جاء من يتهم مواطنا لك .. فاعرض عنه ، واذكر دائما

ـ ان السفارة البريطانية غير الرسمية . تعمل ليلها ونهارها لهذا الغرض الدنيء ، فأفسد عليها امرها ومسعاها .

ان زعماءنا ـ مهما نشتد في نقدهم ـ ليسوا شرا خالصا . وانما هم على اسوأ الظنون والفروض ، قوم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا . فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على التخلص مما بهم من سوء .

* *

نحن .. وحدنا .

واذا كان الاستعمار يلهينا بالمنظمات الدولية ، فلنكن ايقاظا .. ولنعتمد على أنفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية نبرز بها شخصيتنا الدولية فقط .. اما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك اليها الطريق وحدنا .. وهذا يفضي بنا الى النقطة الاخيرة وهي :

* *

الاحتلال السليح .

في سنة ١٨٧٥ . قال دزرائيلي : ان روح انجلترا هي الحرب ـ مادام ذلك دفاعا عن كيانها .

وفي سنة ١٩٤٢ ـ قال تشرشل : اذا خيرنا اعداؤنا بين الحرب أو العار ، فسنختار الحرب .. وسنقاتل على الشواطىء ، ونقاتل على المهابط ، ونقاتل في الحقول ، وفي الشوارع ، وفي الجبال ... سنقاتل من أجل حريتنا .. ولن نستسلم ابدا .»

وبعد أن وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولاندا واندونيسيا ـ اذاع « احمد سوكارنو » رئيس جمهورية اندونيسيا هذا الامر على الشعب :

ـ عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد ، ستكون اندونيسيا جميعها ـ الحكومة والجيش والشعب ـ في حرب فعلية مع

هولاندا الفاصبة .. وسنقاتل بكل الاسلحة .. بالمدافع .. والبنادق .. والخناجر .. والهراوات .. والعقارب .. والثعابين .. ولينصر الله الوطن .

☆☆

فى هذه الكلمات الثلاث ـ يا مصر ـ تتمثل الوسيلة الواحدة لاجلاء البريطانيين الفزاة .. وكل طريق أخرى ان تفضى الا الى مذلة ودمار .

واذا كانت الحكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩

فان واجبها فى سنة ١٩٥٠ أن تقود بنفسها الثورة المشروعة ضد الاحتلال الرجيم متأسية بمبادىء انجلترا نفسها ـ التى وضعها دزرائيلى ، وتشرشل .

نعم ـ اذا خيرتنا انجلترا بين الحرب والعار .. وجب أن نختار الحرب فورا

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقى أن نختار .. فلنذكر جيدا ـ أن الحياة لاتستحق أن نشتريها بالعبودية والرق ..

وان البريطانيين ان يغادروا بلادنا طوعا .. بل كرها ، وهم صاغرون .

اذا لم نطرد الاستعمار

الى هنا نكون قد أجملنا الحديث فى وسائل تمصير مصر ، وتخليصها ..

بقى أن نذكر ـ انه ليس حب الاستقلال وحده هو الذى يحتم علينا هذا التمصير .. بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء ..

ان الحوادث تمر بنا مسرعة ، وهى تجلجل كدقات ناقوس هائل ـ بأننا اذا لم نشتت شمل الاستعمار ، فسيشتت الاستعمار شملنا .. انه يهيىء لحرب أهلية تقوم فى مصر ليدفن تحت أنقاضها مصيرنا .

لابد من الصراحة ، فاسمعوا . .

لقد بث الاستعمار آلغامه فى حياتنا كلها ، وأعدها للتفجير . ولقد خلق «الفتنة الكبرى» بين هيئة كبيرة وحزب كبير . . ولعب لعبته من وراء وراء . . وحقق للأسف — دون أن يظهر على المسرح — كل ما يشتهى ويريد . . وأفلح بهذا فى أن ملأ بحوافز الثأر ، ودواعى الانتقام — نفوسا كانت مفعمة بحوافز الانقضاض على الاستعمار ، ودولته ، وجيوشه . . !

ومن ناحية أخرى — خلق نشاطا شيوعيا انجليزيا — وأقنع الحاكمين بأن العاصفة فوق رءوسهم ، فمضوا ينكلون بمواطنيهم . . وملئت نفوس أخرى بالحقد . لا على الانجليز . بل على مصريين مثلنا . ! وصار الشعب يلعن حكوماته — والحكومات تتعقب الشعب . . والمفسد الأكبر — ذلك الاستعمار البغيض — رابض يقهقه فى نشوة وجذل . !

* *

فاذا كنا حريصين على وحدتنا ، وبقائنا — فلنرفع تجاه القلوب المتناحرة ، والوجوه المتنافرة أملها القديم — يوم أن كانت جميعا . . ولم تكن شتى . . أملها فى الظفر بالاستعمار وطرده واقصائه .

واذا لم نفعل ، فستنطلق الاحقاد المكظومة ، والثرات المولولة فتمزقنا شر ممزق . . وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال شوارع القاهرة مرة أخرى . وتدوس الأشلاء المهينة . . أشلاء الذين واتتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا . . فأبوا . . وضلوا ضلالا بعيدا .

يا ليت قومى يعلمون . . !

اذا لم نلاق الاستعمار فى ملحمة عاجلة ، فسنلاقى أنفسنا . . حيث يفنى بأسنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقاب بعض .

ولو وجد فينا اليوم رجل رشيد ، فلن تكون رسالته سوى

ان يركعنا جميعا فى قديفة واحدة يقذف بها الاستعمار البريطانى فيرديه ، ويحيينا ..

☆ ☆

أتخافون انجلترا يارجال ؟

اذن ، فاقرءوا ـ وهذا خير ما نختم به الحديث ـ نداء الانجليزى العظيم «توماس بين» الى الامريكان يوم وقف يحرضهم على قتال بريطانيا فى حرب الاستقلال .

«سلونى عن الانجليز ، فانا أعرف بهم منكم .. انهم لن يخرجوا من بلادكم الا كرها .. ولن يغادروها الا مقهورين .. فلا تجبنوا عن لقائهم ..

« ليس على وجه الارض انسان يمكن أن يكون جبانا ـ المسألة كلها موازنة .. اما أن الخير فى الاقتحام ، أو الخير فى الهرب .. وليس العيب عيبكم .

« انكم توشكون ان تجعلوا أقوى دولة فى العالم تجثو على ركبتيها ، ولذلك فأنتم ترتعدون

« أيها الأخوة ..

« ثقوا بالنصر ..

« اجعلوا أيديكم تدافع عن اسلحتكم ، وليس العكس ..

«غطوا وجه الارض بأساطيركم

«غنوا ، واستبسلوا ..

«واحبوا ، وقاتلوا ..

« دعوا زوجاتكم ، وأولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا ..

«فكروا فى النصر وحده ..

« ان الحوادث لا تضيرنا .. ولكن الذي يضيرنا بحق ، هو تقديرنا لها .. وهذا التقدير متروك لنا وحدنا ... »

مونتان

الى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا جهد هذا البحث المقتصد الموجز ـ أن ننفض عن أمتنا طفاوة البغى، ورهج الانكسار، ونعاونها فى فض قيودها وأغلالها

واذا كان الله لا يساعد الا الذين يساعدون أنفسهم ، فمما لا ريب فيه اذن أن أمرنا متروك الينا .. وأن مصايرنا قد وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب أن تملأ وعينا . ان الشعوب التى كانت تبيع نفسها فتوبقها، قد ضجت فى قيودها .. وهى اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها ..

أترانا من هذه الشعوب اليمة وجهها شطر التحرر والانعتاق؟ اذا لم نكن منها ـ فيجب أن نكون .

وعلينا أن نبذل من أنفسنا أطيب البذل لنبلغ ما نريد

ونحن مصرون على أن يعود الضمير « نا » الى الشعب ، والحكومة معا .. ان الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل يحرر مصر من أعدائها ـ ومن نفسها .. وقد يرى بعض المواطنين أن استنجادنا بالحكومة وتشبثنا بمزاملتها للامة فى الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب. وهذا خرص يحتاج الى الفطنة وحسن التقدير فنحن لانسى أن حركات التحرير لم ترفع ألويتها قط الا على أكتاف الحفاة العراة الكادحين .. ولكننا لا ننسى ايضا أن سواس الامم اليوم غير سواسها بالامس ، وأنهم مهما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فانهم يخشون بأسها ، ويحذرون انتفاضها .. ويحاولون جهد وعيهم أن يقابلوها فى الطريق. فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء ـ؟

ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا أن نعمل معا ـ حكومة وشعبا ـ فنحن متفقون على ان محاولات النهوض جميعها مكتوب لها البواء بالفشل ، ما دام ذلك السرطان الوقح يجوس خلالنا ، ويعيث فى بلادنا . .

ومن سوى الاستعمار البريطانى نعنيه بالسرطان .. ؟!

ونحن متفقون ايضا على ان عصر الخيانات قد تولى وتقوض .. واستيقظ فى الشعب وجدان ثائر مستريب يقظان . لا يزدرد

الخيانة فى يسر ، ولايتجرع الافك فى صمت ..

ومتفقون مرة ثالثة على ان ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبررا لاستغلاله وهوانه . . فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخيا واعيا وهادفا.. ولايسمح شعب حر ان تطوق حكومته شعبا آخر بالسلاسل والاصفاد.

من كان يظن ـ ان يقف فى فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز» وتقف من ورائه صفوف الجماهير التى لا تنتهى عند مد البصر .. فيعارض والجماهير معه ـ ارسال جيش فرنسى الى الهند الصينية لمحاربتها ، واخضاعها للاستعمار الفرنسى الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب ابناؤنا واخوتنا من اجل استعمار غيرنا .. دعوا الهند الصينية تتحرر .. انهم بشر مثلنا » .. !

بل من كان يظن ، عندما تمادت الحكومة الفرنسية فى استهتارها .. وطفقت تعد حملة عسكرية لتأديب تلك البلاد ـ ان يدعو « توريز » هذا جهارا علنا ، الى عرقلة المجهود الحربى الظالم الذى تكتله حكومته ضد الهند الصينية .. ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية فى تعويق الحملة ، وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخطيرة فى تاريخ الحرية ..

انها انبثاقات ضمير جديد يتكون حثيثا فى البشرية الجديدة

... البشرية التى تريد ان تسوى فى التقدير والاحترام بين سائس الخيل ، وحامل الصولجان.. وبين اضعف الشعوب ، واقواها . . البشرية التى قررت ان تضع حكوماتها فى خدمة مبادئها . . لا ان تسخر مبادئها لاغراض حكوماتها ..

البشرية التى وقفت على سرطفر الذئاب بها .. وهو انها كانت تسير فى موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها ـ تظفر الذئاب منها بكل مستفردة قاصية . . فتعلمت وعرفت .. وقررت ان تجمع شملها ، وتضم الفتها ،

وتصل لنظامها ، وتتحرك في المركب العتيد متشابكة الايدي . موصولة الصفوف ..

الا انه من الفضلة ان يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحريته ـ كائنا ما كانت قوة الحاكم ، وضعف الشعب ..

ومن الصفاقة المتازة .. الا يرى حاكم شعبه جديرا بالحرية ـ ثم يرى نفسه جديرا بالتفرد والاستبداد .. !

فلنذكر جيدا ـ ان الشعب مهما تكن ضآلته وانحطاطه ، جدير بالحرية جميعا . لان الحرية ليست مثوبة يثاب الشعب بها ، او نوطا من انواط الزينة والتكريم يزين صدره .. بل هي حياته .. هي وجوده .. هي ضرورته الكبرى التي لا ينهض بسواها ، ولا يحيا ..

واذا كنا قد اهتدينا في مسيرنا عبر هذا الكتاب الى وسائل التحرير والخلاص كما نراها .. وربما ايضا كما يراها بقية المواطنين ، فقد بقي امامنا ادراك حقيقة هامة .

يقول الفيلسوف « جوته » :

« ان التفكير سهل . . لكن العمل صعب .. والعمل وفاقا التفكير هو اشق واجبات الحياة ، وأهداها سبيلا . »

ونحن الى اليوم شعب يحس كثيرا .. ويفكر قليلا .. ولا يعمل ابدا . !

ولكنه مع ذلك ، وللاسباب التي ابديناها آنفا ـ يستحق الحرية .. جميع الحرية .

والواجب الذي يتوسل به لحقه . يشع من كلمات ذلك الفيلسوف .

فلنفكر لانفسنا في دقة وعمق .. ولنكون لها ، ونحن نفكر ـ ارادة العمل .. فاذا ما انتهينا من انضاج الفكرة .. انتهينا ايضا من انضاج الارادة .. عندئذ نعمل في ثبات وجراة وفق تفكيرنا الواعي ـ لا وفق عواطفنا المتميعة .

اننا حتى الآن ـ لا نجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا

وساوس غامضة . . وعملنا انفعالات غريزة .

هكذا نحن ـ الدولة والمجتمع

فالدولة لا تزال تؤمن انخلاصها من المستعمر يأتى بالسلم من طريق المفاوضات . . ويأتى بالحرب من طريق التمثيل والمظاهرات . . والشعب على دينها من المؤمنين . . !

وهنا يبين حظنا الوافر من قلة التفكير . . فلو اننا فكرنا تفكيرا مركزا لا انتهينا الى ان انجلترا دولة تحترم القوة ، وتحتقر الحق . .

دولة تؤمن بحقوق الانجليز اولا . . ثم حقوق الانسان ثانيا !

دولة يجلد رجالها عراة . . فتنشىء للجلادين دولة . .

ويكرم رجالها فى نادى «العلمين» فتعض الأيدى التى أكرمتهم ، وتبصق على الوجوه التى استقبلتهم . . !

نعم ـ لو اننا فكرنا ، لاعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الانجليز . . لانه فقط يخادعنا ، ويطيل امد مكثهم بيننا . . ولبحثنا عن الحاكم الذى يصنع كما صنع « احمد سوكارنو » ـ فيقود الامة والجيش الى التحام هائل مع قوى الشر والضلال التى افتتنا وسوت بنا التراب . . !

ما ذا وراء هذه المخاطرة من عاقبة . . ؟

الموت . . ؟

ما اعذب الموت اذا حان الاجل!

ان رائدا من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحلاوة السلم ان نشتريهما بالاغلال والرق؟ وقانا الله ذلك . !»

« لست ادرى اى نهج ينهجه غيرى ، اما انا فأقول : الحرية . . او الموت . ! »

وضعف تفكيرنا ايضا هو الذى يجعلنا نسىء الظن بالحرية ، ونخاف على النظام من ضراوتها ، ونحاصر الامة بسلسلة عاتية من القوانين والاجراءات ..

ولو اننا فكرنا جيدا لعلمنا ان الجهد الذى نبذله لترويض الشعب على احترام القوة ثم لا يجدى ـ خير منه جهد يبذل لترويض الشعب على احترام الواجب ، ثم يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذى جعلنا عزين واشتاتا .. يكيد بعضنا لبعض ، ويلعن بعضنا بعضا ...

ولو أننا فكرنا قليلا ، لرأينا الارض المشتركة التى تجمعنا كافة ـ من كل الهيئات ، والاحزاب ـ هذه الارض المشتركة هى « ارادة التحرير » ..

كلنا ـ نحن الشعب ـ متفقون على ارادة التحرر مما نحن فيه من ذل واستعمار واستبداد . والخلاف بيننا فى الوسائل ، وهو لهذا خلاف صغير لايعتاق سوى القلوب الصغيرة ، والعقول الصغيرة .. فلنتكتل معا فى هذه التخوم المشتركة ، والارض الجامعة

التفكير السديد ـ والعمل وفق هذا التفكير ـ هما الخطوة الاولى يا رواد التحرير والانقاذ

والشعب الذى يكتظ فكره بالبغضاء ، والثأر ، والحسد ، والتربص ، والعجز ، والتلاوم ـ لن يكون شيئا ما ، فى يوم ما .. وسيظل رمزا لما تستطيع هذه الافكار الرديئة السوداء ان تصنعه لتمزيق الامم والجماعات

فلنغسل تفكيرنا من هذه الاوضار .. ولنواجه مشكلتنا الكبرى بأفكار مستقيمة مستبشرة باسلة .. ولنحول طاقة الثأر والحقد التى تغص بها نفوسنا الى عدونا الحق ـ المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل أفكارنا وتتراجع عندما نوجهها لملاقاة مشكلة الاستعمار البريطاني ... ؟

ولماذا تقاحم وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا ببعض ، وتجعلنا عبرة وأحاديث .. ؟

لماذا تجبن فى الاولى ـ وتستبسل فى الثانية .. ؟

السبب أنها أفكار طائشة ... بل هى ليست أفكارا على الاطلاق .. لكنها انفعالات غريرة مجنونة تتسرب خلالها ـ وأسفاه ـ كل طاقتنا .. حتى اذا يمماكفاحنا شطر الاستعمار ـ لم نجد من أنفسنا ناصرا ولا ملتحدا .. !

يقول فيلسوف حكيم :

« ان المرء لا تضيره الحوادث ، وانما الذى يضيره بحق ـ هو تقديره للحوادث .. »

فلنقدر الحوادث التى تقع بيننا ـ نحن المواطنين ـ تقديرا كريما يرتفع بنا عن التناحر ..

ولنقدر الحوادث التى تجرى بيننا وبين الاستعمار تقديرا يندفع بنا الى مناهضته ومقاتلته

ما أروع محمدا عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين .. الله ثالثهما ... !

ان هذا التفكير المؤمن بالنصر ، الواثق بالفوز ، والعمل وفق هذا التفكير ، وكان ساعتئذ يتمثل فى الهدوء ورباطة الجأش ـ هما اللذان صرفا عنه ابصار الذين لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآه .. ورأى صاحبه معه .. !

لقد انتهى العهد الذى كنا نتساءل فيه : ماذا نعمل .. ؟

وحل عهد جديد شعاره : يجب أن نعمل

وبعد ـ فها أنت ذا تبلغ ختام الكتاب .

اتظن أن ما بينك وبينه قد انتهى ببلوغ هذا الختام ..؟

كلا .. فالآن يتلقفه عقلك الكامن ، ووعيك الباطن ليصوغا لك منه فكرة .. ويرسما نهجا .. ويصطنعا ارادة تحدث بعد ذلك امرا ..

فلندعهما الى حين ..

ولنتصور من جديد ذلك الشوط الذى قطعناه .. لقد سرنا هكذا ...

شعب فى السلاسل .

الحرية .. هى الخلاص .

الشخصية .. كى تعمل

تمصير مصر .

* *

ان هذه الشمس التى تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء الحرية ..

وهذا الفجر الذى تتشقق عنه ارحام الليالى واكمامها — يذكرنا بضوء الحرية ..

وهذا الربيع فى مهرجانه الطليق الحافل .. يستجيش حنيننا الى الحرية ..

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطغاة : —

متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

تسوقنا سوقا عنيفا لمعركة الحرية ..

***

واذا سئلنا — ما نحن .. ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد ان يصحح شخصيته .

ويحقق حريته ..

ويعلن فى ربوعه ونجوعه حقوق الانسان .